العقلية العربية في الجاهلية

العرب في التاريخ نظرية الدياتين . نظرية الشعوبيين . مناقشة هاتين النظريتين .

مهبط الوحي طريق الهند . موقف الروم من الحجاز . سكان مكة . السلطة في مكة . القوة التنفيذية . ثروات مكة . متاجر مكة . الصرّافون والدَين . نظام القافلة وبضائعها . تجارة القوافل . مصيف القرشيين .

العبادة الحجازية اليهود في الحجاز . النصارى في الحجاز . اسباب ظهور الوثنية : الروايات الثلاث . اشهر الانصاب والاصنام الحجازية : مناة ، اللات ، العزى ، هبل ، سعد . الشعائر الدينية . الجن . الفكرة اللاهوتية .

المعارف الاولية الطب الجاهلي . الانواء . الزجر .

العرب في التاريخ

كاد زعماء التاريخ الاسلامي يُجمعون على ان العربي الذي خرج ابان الفتح الى مملكتي الاكاسرة والقياصرة كان حظّه من العلم قليلًا ، ونصيبه من الرُقي هزيلاً ، وقسطُه من الدراية السياسية نادراً . وكيف تكون حاله غير هذه ، وقد صوروه في جاهليته يتخذ الضب له مأكلاً والماء الآسن مشرباً ، والخيمة المتداعية منزلاً ، ويشد بنيّاته خوفاً من العار ، ويغزو جاره تدار كاً للفقر .

ثم ابرزوه فجأة في زِيه الاسلامي وقد بسط نفوذه من السّند شرقاً الى المحيط الاطلسي غرباً ، وكثرت بين يديه نِعمُ التمدن القديم ، من ارفع ما توصلت اليه رفاهية الفرس الى ارقى ما أنتجه الفكر اليوناني الروماني الخصيب . وتحولت حياته الخشنة الجافة من عبوس العيش ، وهموم الغد ، وخوف الذل ، وعري البؤس ، وجهل الوثنية الى نمط لا يمتّ الى الامس بصلة . فاؤه فائض ثمر ، يجري الي بركه الرخامية ، ومسكنه صروح الامراء

من فارس وقصور القواد من بيزنطية ، وزوجه الهزيلة العجفاء تهدّل جسمها من السمنة ، واصبحت سيدة عظامية تخدمها بنات المرازبة وغواني الروم ، واولاده يُتخمون من كثرة ما يطعمون ، فيرفهون عن معدهم بركوب الجياد ورمي النبال والرماح ، كأن الله قد اختاره ليكون المخلوق الاسعد والارفع والانعم سعادة في الارض ، وجنة في السماء .

يعود ذلك الى ان الذين عُنوا بتدوين الحِقبة العربية من التمدن الانساني ، هم : اما مغالون في عقيدتهم الدينية ، يودون حصر الفضل في الرسالة وحدها ، او شعوبيون يبينون ان لا فضل لهذا العربي في حضارته ، وانما هم الذين حلوها بكل ما تزخر به من رفعة وسمو ، وان طباعه الجافية ، وحياته المضطربة لا تمكّنه من ان يأنس بالحَضَر ، او ان يطمئن إلى الزراعة والتجارة والعلم . وكل هذه من مبادىء العمران ومقوماته . اما الحقيقة التاريخية التي يستشفها الدارس الحديث ، فليست توافق هاتين النظريتين المغرقتين ، اما في محافظة دينية او في شعوبية .

نظرية الديانين

فهؤلاء لم ينظروا الا الى المتبدّي الذي لوّحته شمس الصحاري ، واستنفدت مطالب العيش كل قواه وفكره ، فكاد افقه ينحصر في مراعي

ماشيته . ولم يتعرفوا الى المدنيات التي برزت في شبه الجزيرة منذ اقدم العصور التاريخية الى ما قبيل الاسلام ، ولم يحاولوا ان يتبينوا فيها البذور الطبيعية للفتوح التي رافقت الدعوة .

والواقع ان الموجة الاسلامية التي تدافعت على فارس ، وغمرت شواطىء البحر الابيض ، لم تكن سوى الموجة الاخيرة لموجات سابقة متتابعة متلاحقة ، تنبعث من الجزيرة العربية وتندفع غرباً وشمالاً وشرقاً . فلم يذكروا الا باقتضاب سكان اليمن ، وهم اهل مدن ومحافدَ وهيا كلَ واثاثٍ ورياش ، لبسوا الخزّ ، وافترشوا الحرير ، واقتنوا آنية الذهب والفضة ، وغرسوا الحدائق والبساتين . وتجاهلوا الانباط ، وقد كانوا حلقة الاتصال بين تدمر وغزة وخليج فارس والبحر الاحمر واليمن . واتسعت مملكتهم حتى شملت جزيرة سيناء وحوران . وجعلوا من « سلع » قصبتهم مدينة عامرة ، تزخر بالابنية الفنية التي لا تزال تطالعنا بروعتها الى الوقت الحاضر . ومثّلوا قبل الاسلام بخمسة قرون اناقة الهندسة اليونانية في تلك البقعة العربية . واهملوا التدمريين والمحاولة الجريئة التي قامت بها زنوبية ملكة الصحراء في بسط نفوذها على مصر وآسية الصغرى . والقضاء على النفوذ الروماني في سبيل تأسيس مملكة عربية تقوم على الثقافة اليونانية من حقوق وادب وفلسفة وفن ، قبل الاسلام بما يقارب ثلاثة قرون ، كما انهم لم

يعنوا الا عناية ضئيلة بالمناذرة والغساسنة [١] . مع ان هذه القوى الحية التي ظهرت على تخوم الامبراطوريتين الفارسية والبيزنطية ومملكة الاحباش ، كانت بحاجة الى قوة جامعة موحدة وروح عامة توفق بينها وتسيّرها الى غاية معينة ، فكان الاسلام .

نظرية الشعوبيين

اما هؤلاء فان موقف الباحث منهم هو اشد دقة ، واكثر تعقيداً . وذلك لانهم يستشهدون على صحة بيّنتهم ، عدا الحجة السابقة التي اظهرنا بُعدَها عن الواقع التاريخي ، بادلة وبراهين لها وزنُها واهميتها . منها انهم هم الذين نظموا تلك الامبراطورية ، وان المجوس والسريان والاقباط ساعدوا بحسابهم ودواوينهم على ابقاء تلك القوة الجامحة والاستفادة منها ، واستخراج ثمرها . ولولا هؤلاء لاندفعت اندفاعاً عنيفاً ، حتى اذا ذهب ما فيها من تمدد ذاتي ، وانسياح شخصي ، واتخمتها ارزاق المغلوبين ، تقلصت وعادت الى مكمنها تقضم في امن الصحراء ما وهبتها اياه نعَم الحضارة

---

١ لا بد من الملاحظة ان هذه الاقوام وان اختلطت بالاحباش والفرس واليهود والآراميين وسواهم من الشعوب ، كان العنصر العربي فيها هو الاغلب والاقوى . وقد بالغ المؤرخون ، ولا سيما العرب ، في اهمالهم . ولعل في العناية بتاريخهم جلاء لصفحات لا تزال غامضة في تاريخ الحضارة عامة وتاريخ العرب خاصة .

القديمة . ومنها انه اذا كان للعرب من فضل على العالم فان هذا الفضل يعود في اغلبه الى الناحيـة الفكرية ، والنمو العلمي ، والآثار المدونة من شعر وتاريخ وجغرافية ، الى ابحاث وارصاد وصفحات خالدة في الفلسفة والاجتماع . وان نظرة تلقى عليها وعلى تاريخ المشهورين من النوابغ في هذه الابواب ، تكفي لتبين ان حظ الدخيل على الاسلام من غير العرب كان اوفر من حـظ العربي الاصيـل ، وان معظمهم كان مـن الفرس او الروم او السريان امثال ابي نواس وابن الرومي في الشعر ، وعبد الحميـد الكاتب وابن المقفع في النثر ، وامثال ابي حنيفة النعمان في الفقـه ، والفارابي وابن سينا والبيروني والغزالي في الفلسفة والعلم . هذا اذا ضربنـا صفحاً عن البناء المعجب الذي نثرته تلك الحضارة في الرقعة الاسلامية كأبنية البصرة والكوفة ودمشق وبغـداد والفسطاط .

والواقع ان فضل الاجانب في ذلـك العمران كبير وعملهم عظيم ، وان لم يكن مسيطراً على جميع مظاهر النشاط الحضري . وان تلك الواحـات الحضرية التي انتشرت في شبه الجزيرة قبل الاسلام ، كانت آنئذ وافية بشروط حياة عادية ، نفوذها محدود ، وغايتُها محصورة ، ولكنها غير كافية للمملكة الجديدة التي تضم جزءاً هاماً من العالم القديم . فوجب تدوين اللغة وتعليمها للدخلاء ،

والاحاطة بالعلوم الدينية ، ووضع فقه ينظم التعاقد والتعامل والرق والعتق ، واحياء الاداب والفنون ، وتشجيع الصناعات والمهن . فاستعان العرب باصحاب الحضارات في البلاد المفتوحة لوضع الاسس التي ينبغي ان تقوم عليها المدنية الجديدة . وكان من الطبيعي ان يقوم الموالي بالدور الاهم فيها لانصراف اكثرية العرب الى اقرار الفتوح ، ومواصلة الجهاد ، وحكم الولايات .

فكأن تجلي الرفعة في العقلية العربية كان في ترقب الاستقرار المطمئن ، والغد المستكين ، والعيش المؤمن ، والنفوذ المبسوط ، كما ان اشراق الفكرة الغربية في عهد الاغريق ، و « المستغرقين » ، لم يتم الا في ظلال المدن المستقلة . ولم تأت هذه الفكرة باطيب ثمارها على شواطىء البحر المتوسط الا بعد ان تقدمتها جحافل الاسكندر الى الغرانيق واربل . وكان العدد الاكبر من الذين تجندوا لها من المصريين والسوريين وسكان آسية الصغرى .

عندما ضعف شأن العرب ، وغمرتهم الموجات الغريبة التي انضمت الى الاسلام ، وركدت الروح العسكرية في صدورهم ، ولاسيما في المغرب والاندلس بعد قيام دولتي المرابطين والموحدين ، وانتقلت الزعامة الحربية الى البربر ، حوّل العرب جهدهم الى الفكر ، فسيطروا هناك وجاؤوا بالادب الرفيع ، والفن الانيق ، والفلسفة المبدعة . وكاد يقتصر النبوغ العقلي

عليهم وحدهم . واذا بالارستقراطية العسكرية في المشرق تتحول الى ارستقراطية علمية في المغرب واسبانية ، على حدود النهضة الاوروبية الحديثة .

مهبط الوحي

طريق الهند

كانت فارس تسيطر في عهد الامبراطور يوستنيانوس (٥٢٧ م – ٥٦٥ م) على طرق المواصلات بين الغرب وقلب آسية . فاخذت بيزنطية تتصل بالاقوام المجاورة لفارس ، وتتجه نحو البحر الاسود أو شبه جزيرة القرم ، معتمدة على بلاد ارمينية ، محاولة فك النطاق الحديدي الذي اقامته فارس حول الامبراطورية للاتصال باسواق الحرير والافاويه . وكذلك سعت جهدها للتقرب من المناذرة والغساسنة على حدود مقاطعتها الشامية الفاصلة بينها وبين فارس وشبه جزيرة العرب ، وللتقرب من الدولة

---

* اعتمدنا في كتابة قسم من هذا الفصل على المباحث القيمة التي عقدها المستشرق الاب لامنس اليسوعي ولاسيما كتبه :

La Mecque à la veille de l'Hégire. — La cité de Taïf à la veille de l'Hégire. — L'Arabie Occidentale avant l'Hégire.

واعتمدنا على مراجع اخرى اشرنا اليها في اماكنها .

الاكسومية الحبشية ، لعلها بهذا تفتح امام سفنها ابواب البحر الاحمر .

كان القسم الاوفر من تجارة الهند ينزل خليج العجم ، ومن هناك يسير محاذياً الفرات ليصل الى شمال الديار الشامية . وهو الطريق الافضل والاقرب . غير ان كثرة الضرائب والحروب المستمرة جعلت منه الطريق الاصعب والاوعر . لذلك اتجهت المتاجر في طريق جنوبي يخترق الصحراء ، يصل الخليج العجمي او المحيط الهندي بالبحر الابيض المتوسط . وهذا ما كان سبباً في ازدهار مدنية تدمر ، وتألب البدو الاذكياء ، حول منبعها كما تألب القرشيون حول بئر زمزم من بعد . فقيام المدن وازدهارها ثم ركود ريحها ، وضعف شأنها يعود في اغلب الاحيان الى تحول الطرق من مكان الى آخر . ولقد نعمت مكة والطائف في اواخر القرن السادس بحالة تجارية تحسدان عليها ، سببها الحروب الدائمة الناشبة بين فارس والروم .

موقف الروم من الحجاز

من الثابت ان مركز الجزيرة العربية التجاري وموقعها بين ثلاث قارات ، كانا السبب الرئيسي للحروب الدامية التي نشبت قبيل الاسلام بين الاحباش والفرس وبيزنطية .

يظهر مما كتبه الرواة ان قصياً جد القرشيين نشأ في بني

عذرة . ولعل هؤلاء ، وهم من القبائل الشامية المسيحية ، قد ساعدوه في فتح مكة . وكانوا اشداء عرف الغساسنة من بطشهم الشيء الكثير . ويذكر ابن قتيبة ان قيصر الروم اعانه على خزاعة . ولكن ما هو مدى هذه المساعدة ؟ وما هو نوعها ؟ أمالية كانت ام جنداً ، ام سلاحاً ، ام تدخلاً سياسياً ؟ اكثر الرواة من ذكر كلمة قيصر . ولعلنا نصيب الحقيقة اذا جعلنا مكان قيصر اسم زعيم غساني . فبنو جفنة كانوا عمالاً للروم ، يتدخلون في شؤون نجد والحجاز ، معتقدين ان القسم الشمالي من الحجاز خاضع لنفوذهم . وهكذا كان يعتقد اللخميون في الطرق الشرقية من شبه الجزيرة في تصريف شؤون بكر وتميم وحنيفة . ووصلت كتائب الجفنيين الى بلاد سُليم في جوار مكة . فليس هناك اذاً ما يحيل الافتراض القائل بانهم

---

١ نشأ قصي في ارض بني عُذرة . انتقل اليها مع امه وهو في سن الفطيم . وعندما شب عاد الى قومه في مكة . وهناك تزوج من حبي ابنة حليل الخزاعي السادن ووارثة مفتاح البيت . وابت خزاعة ان تبقي المفتاح معه بعد وفاة حليل . فارسل قصي الى اخيه لامه رزاح من ربيعة ، وهو ببلاد قومه من قضاعة ، يدعوه الى نصرته ويعلمه بخبره مع خزاعة ، فسار اليه اخوه بجماعة من قومه ونصرة (راجع الازرقي ، تاريخ مكة ، ج ١ ، ص ٥٧ ــ ٥٨) .

اعانوا قصياً في فتح مكة واقصاء الخزاعيين عنها .

وهناك حادثة اخرى اقرب الينا واكثر وضوحاً ، وهي حادثة عثمان بن الحويرث من الحنفاء . اعتنق عثمان هذا المسيحية في مكة قبل مغادرتها ، وكان من اظرف قريش واعقلها يحلم بان يصبح ملكاً عليها او صاحب كلمة نافذة . فاتصل بقيصر ، وكان المسيحيون يعتبرونه حامياً لهم ، بل لعله اتصل بعمالهم في الشام واظهر لهم ما يمكن ان تجنيه بيزنطية من الارباح باحتلالها الحجاز ، وسيطرتها على طرق القوافل ، فلا ترغم على دفع الضرائب للاعراب في سبيل السماح لها بالمرور . غادر سورية ، ومعه شيء من المال والهدايا والرسائل الى اهل القوة من الملا تعلمهم ان عثمان هو رسول قيصر . وعند وصوله بدأت المحادثات ، فبين لهم ان بيزنطية لا تطلب منهم الا هدايا سنوية تقدم لقيصر مقابل السماح لهم بالتجارة الحرة ، واذا لم يرضوا بذلك فقد تعمد بيزنطية الى القوة . غير ان مهمة عثمان لم تنجح ، فقد مات مسموماً ، وجاءت حروب الروم والفرس فحالت بين البيزنطيين والانتقام لعثمان .

سكان مكة

يظهر ان القرشيين رأسوا في مكة قبل الرسالة بمائة سنة . واشهر بيوتاتهم ، هاشم ، وامية ، ونوفل ، وعبد الدار ، واسد ، وتيم ، ومخزوم ،

وعدي ، وجمح ، وسهم ، تنزل البطحاء حيث بئر زمزم والكعبة واطلق على مجموعها اسم « قريش البطاح » لان هذه المنطقة تعتبر منزلاً للاشراف . واما الاسر الباقية فتنزل في الشعاب ، وتسمى « قريش الظواهر » . ويبدو ان قريشاً اختلطت بالاقوام الغريبة من الحلفاء والعبدان والصماليك والاجانب من اقباط واحابيش .

السلطة في مكة

يقوم بادارة شؤون الجمهورية التجارية جماعة من رجال الاعمال صيارفة وتجاراً . ولعل انساناً لم يتوصل قط الى ما توصل اليه في مكة من تحقيق المثل الاعلى الديموقراطي : التمتع باكبر عدد ممكن من الحريات الفردية في ظل حكومة بسيطة قليلة الدوائر والموظفين . ومما لا شك فيه ان هذه الحكومة الشعبية التجارية يرجع تاريخها الرسمي الى عام ٥٩١ ميلادية عندما عقد « حلف الفضول » في بيت عبد الله ابن جُدْعان ، حيث اجتمع بنو هاشم ، وبنو المطلب ، وبنو اسد بن عبد العزى ، وبنو زهرة ، فتعاهدوا وتعاقدوا على ان لا يجدوا بمكة مظلوماً من اهلها ، او غيرهم ممن دخلها من سائر الناس الا قاموا معه ، وكانوا على من ظلمه ، حتى تُرد عليه مظلمته . وقد حضر النبي على ما تذكر كتب السير هذا الحلف مع عمومته[1]

---

١. راجع تاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ١٦٨ — ١٦٩ ، طبعة ١٩٣٦ ،

وكانت الحكومة التي نشأت عن حلف الفضول تضم دوائر تختص كل واحدة منها بناحية من العمل ، منها دائرة لحفظ المخطوطات ولاسيّما التجارية ، واخرى لفرض الضرائب على التجار الاجانب ، وتضم الى جانب هذا اعمالاً ستة ، فيها الذكر والشرف والعزّ ، وهي السدانة والحجابة ودار الندوة [١] ، واللواء ، والرفادة [٢] ، والقيادة ، والسقاية [٣] . وكان المكيون يستخدمون المنادي الذي يطوف في اسواق البطحاء ، ينادي بامرٍ من الامور ، او يدعو الناس الى اجتماع او وليمة يقيمها احد الاسياد كابن جدعان مثلاً ، او يبين للناس

المقريزي : امتاع الاسماع ، ج ١ ص ١١ ، طبعة ١٩٤١ ، طبقات ابن سعد ج ١ ص ٨٢ .

١ دار الندوة كانت قريش تقضي فيها امورها . ولم يكن يدخلها من غير ولد قصي الا ابن اربعين فما فوق للمشورة . ويدخلها ولد قصي اجمعون وحلفاؤهم (راجع الازرقي ج ١ ص ٦١) . وهي كناية عن مشيخة تقرر فيها الامور الحاسمة التي تتعلق بمستقبل الجمهورية ومصيرها . ومما لا شك فيه انه كان لها رئيس ، ذو سلطة نافذة تشبه سلطه رؤساء الجمهوريات في العصور الحديثة .

٢ تخرج قريش اموالا لها في كل موسم ، فيصنع بها المكلّف بالرفادة طعاماً للحاج ، فيأكل منه من لم يكن معه سعة ولا زاد . (راجع الازرقي ج ١ ص ٦٢) .

٣ لقريش حياض من ادم توضع بفناء الكعبة ، فيملأها المكلف بالسقاية ماء من الآبار ، ويسقيه الحاج .

ان فلاناً قد خلعته قبيلتـه . واحاطت فيها بعد جماعة من المنادين بالنبي في المدينة اشهرهم بلال ، فكان يستخدمهم في جميع الامور ولا سيما في الدعوة الى الصلاة . ولعل الوظائف الاخرى كالقبـة والاعنة والازلام والسفارة والاشناق لم تكن من الوظائف الرفيعة ولذا جعلها الرواة كذلك بعد الاسلام لرفع مقام قريش واكساب بعض اهلها شرفاً لم يكن لهم في الجاهلية .

كانت السلطة التشريعية ، اذا صح التعبير ، في يد الملأ ، اي الاشراف ورؤساء الاسر واهل القوة واصحاب الاموال . يجتمع هؤلاء في دار النَـدوة حيث تتمثـل قوة قريش في حالة اعلان حرب او تشاور او عقد زواج او عقد اتفاق تجاري عام ، او تنظيم القافلة العـامة . وتعقد الاجتماعات العادية في الاندية او المجالس ، وهناك يُقرر حق الجوار او الخلع .

القوة التنفيذية

كان لمكة مركز تجاري كبير ، ومقام ديني خطير ، دفعا اليها الخُلَعاء والفتّاك والشُذاذ والمتشيطنة والصعاليك والذؤبان ، وهم جماعة خلعتهم قبائلهم ، يَفِدون على اسواق مكة يبيعون فيها ما يكسبونه في غزواتهم . لذلك حاولت قريش ان تستخدم قوة هؤلاء في حفظ القوافل ، وفي ساحات الحرب . فكان لكل فئة من اسياد مكة جماعة من هؤلاء الشذاذ ، فيأتي العربي الحرَم فيستأجر الصعاليك .

ويسعى القرشيون في توسيع منطقة الحرم لحفظ اموالهم وبضائعهم من السرقة . وكانت قبيلة غفار تمثل تلك الطبقة من الشذاذ الذين يحتالون على الحياة بمختلف الطرق . وكذلك قبيلة أسلم في مرتفعات تهامة . فدرجت قريش على ان تختار من هاتين القبيلتين ضباطاً لعسكرها المأجور المعروف بالاحابيش ، ليؤلفوا اركان الجيش .

وكان في معركة أحُد مع قريش احابيش ، منهم قاتل حمزة عم النبي . وكان للاحابيش رئيس عربي يدعى « سيد الاحابيش » يقوم بالقيادة العليا . وتنتقل السيادة من واحد الى آخر دواليك . فلا تطول مدة السيد في منصبه لخوف القرشيين من استبداد السادة . وكان لهم راية خاصة ، واتفاقات مع المكيين ، يذكرون فيها شروط العمل والمعاونة ، ومدة خدمتهم العسكرية وامتيازاتهم ، وما يتناولون من الاجر . فكأننا بمكة اصبحت ثالثة قرطاجنة والبندقية . اما الملاك فيتألف من سادة ورؤساء وعرفاء ، كلهم من العرب ولهم وحدهم الحقُ بالاسلاب ، وللعبيد اجر معين ، واحياناً يوعدون بالحرية . ولم يكن من نظام عسكري بشكناته ومعسكراته وكتائبه الدائمة ، فالخدمة المأجورة لمدة الحرب ، واحياناً لمدة غزوة واحدة ، حتى اذا انتهت المعركة صُرف الجيش ، فأرسل البدو الى باديتهم

والاحباش[1] الى مصانع المدينة وعادت المطايا الى حظائرها ، وجُمع السلاح وأعيد الى مستودعاته .

ثروات مكة

كان يهود يثرب يشبّهون القرشيين بالملوك لكثرة ثرواتهم مع ان هؤلاء اليهود كانوا من الاثرياء يتاجرون بالمجوهرات وصناعتها . ولم يكونوا ليصدّقوا ان اشراف الناس وسادتهم وملوك العرب ، كما قال كعب الاشرف ، ينهزمون امام قبضة من الانصار المزارعين في معركة بدر .

كان تجار قريش يصدّرون بقيَم تفوق قيم ما يستوردون وينقلون ، فقد اشترك متجر ابي احيحة في قافلة بدر بثلاثين الفَ دينار ، ولعل هذه القيمة الضخمة تضم النشّ[1] ، اي انصاف الدنانير ، التي يُكتَتَبُ بها العامة . واما بنو امية فقد بلغت قيمة اسهمهم عشرة آلاف دينار ، وفي الوقت نفسه كان هؤلاء « الرأسماليون » يجهّزون قوافل اخرى في طريقها الى اليمن .

وكانت بنات ابي احيحة من اغنى محتقبات[2] مكة . ولعل

---

١ نصف كل شيء ، وهو هنا بمعنى نصف دينار .

٢ المحتقبة المدخرة من ارث وغيره .

عبد الرحمن بن عوف الذي هاجر مع النبي الى المدينة معدماً والذي جمع ثروة تقدر بالملايين اعتماداً على نفسه ، دون ان يكون لديه في يثرب شيء من المال اول الامر ... لعل هذا الصحابي يرمز الى ما تميز به القرشيون من مهارة في التجارة ، وتنظيم القوافل ، حتى قيل « العرب تجار وسماسرة » . وكذلك كان ابن جدعان من اصحاب الملايين ، فشبهه احد الشعراء بقيصر . نشأت ثروته من الاتجار بالعبدان بنوع خاص . ولم يكن هو وابو سفيان ليستثمرا جميع اموالهما في تجارة القوافل ، ويعرضاها لخطر الضياع . فقسم منها في الطائف والمدينة وبين ايدي الزعماء في القبائل ، وقسم آخر ينفق في استخراج المعادن . وكان الوليد ابن المغيرة وعبد الله « ابو عمر » بن ابي ربيعة من اصحاب الثروات الضخمة ايضاً . وهذان الاخيران ينتسبان الى قبيلة بني مخزوم القوية . ويُذكر ان الوليد بن المغيرة جمع ثروة من الاتجار بالطيوب . وكان هؤلاء الاثرياء يتعهدون الباس الكعبة النسيج اليمني ، فيؤدي كرمهم الى دعاوة حسنة لمتاجرهم .

واما فئة التجار العاديين واصحاب الحوانيت وصغار الباعة فقد كانوا يؤلفون الطبقة المتوسطة في مكة . فيشرفون الى جانب متجرهم الخاص على مصلحة من المصالح الصناعية حيث يستخدمون العبدان . وذلك لان العرب ولاسيما في الجاهلية

كانوا يتعيرون المهن ، ويسندون اعمالها الى عبدانهم ، فيستخدمونهم بالحدادة والنجارة والجزارة .

مناجر مكة

لمصارف مكة « كتاب » تُدوّن فيه الحسابات . ولكلٍ من المستزبنين [1] كتاب خاص يكتب فيه ما عليه وما له . يطلق على الكتاب الرئيسي اسم « الامام » ، ويقوم بالاشراف عليه فتى يراقبه الخازن . اما القراءة والكتابة والحسابة فكانت منتشرة انتشاراً كبيراً في مكة ، حتى ان الانصار استخدموا اسرى بدر في تعليم اولاد المدينة ، فيُطلَب من الاسير تعليم عشرة من غلمان الانصار ليُخلّى سبيله ، ويوم ذاك تعلم زيد بن ثابت كاتب الرسول فيمن تعلم [2] . وللميزان كما للكتاب اهمية كبيرة في المتاجر والمصارف ، يستخدم في وزن البضائع عند شرائها او بيعها . واما الموازين القسط يستعمل لوزن النقد من المعادن الثمينة كالذهب والفضة [3] ،

---

١ المستزبن هو الآخذ حاجته من المال . قال العرب : اخذ زبنه من المال اي حاجته . واما الزبون بمعنى المشتري فهي كلمة مولدة .

٢ راجع المقريزي : امتاع الاسماع ، ج ١ ص ١٠١ .

٣ « وَنَضعُ الموَازِينَ القسطَ ليوم القيامةِ » الانبياء ، ٤٧ . ــ « وأوْفوا الكيلَ والميزَانَ بالقسطِ » الانعام ، ١٥٢ . ــ « أوْفوا المِكيالَ والمِيزانَ بالقسطِ » هود ، ٨٥ . ــ « وأقيموا الوَزْنَ بالقسط ولا تُخسِرُوا المِيزَانَ » الرحمن ، ٩ .

يقوم بالمهمة وزان يزن بالاجر . ولعل تجار مكة كانوا ابرع الناس في استخدام رؤوس اموالهم في المتاجر ، فيعمدون الى استثمارها عوضاً عن خزنها في صناديقهم .

وهناك قسم من السكان مؤلف من السماسرة والباعة يعتمدون في اشغالهم على الدين . وكان من المعروف لديهم نوع من الامانات او الودائع ، يدفع عنها اصحابها مبلغاً من المال ، فيحتفظ بها الامين مدة من الزمن ، ويردها عند الطلب بعد ان يأخذ عليها جعلاً . واما الودائع التي يُصرَّح له بالتصرف بها ، فانه يدفع عنها فائدة معينة بشروط خاصة تُدوَّنُ في وثائق وتختم .

وكان اصحاب المصارف يتفننون في استثمار اموالهم . فيضاربون باسعار النقد والبضائع ووصول القوافل او تأخرها . اما النقود المتداولة في مكة فاجنبية المصدر : الدينار بيزنطي ، والدرهم فارسي . والنقد الرائج في الشراء والبيع والصداق والهبات والديات هو النوق ، لان الجمل هو الوحدة النقدية عند العرب . ويستعملون احياناً في المناطق الزراعية كالطائف القمح والتمر والزبيب . تنقل القوافل الى مكة مختلف النقود البيزنطية والساسانية والحميرية وهي ذات اوزان مختلفة واشكال غير متسقة ، لانها تصدر عن مصانع متعددة ، لا يعرف قيمتها الحقيقية الا الصرّاف الخبير المحترف .

الصرافون والدين

يتطلب تنظيم القوافل نفقات كثيرة ورجالاً عديدين ، فيقرض صاحب المال ماله للتجار وقائدي القوافل والسماسرة . ولا يكتفي اصحاب المصارف كأمثالهم من المعاصرين ، باستخدام مالهم الخاص ، بل يتصرفون ايضاً بالودائع . اما تجهيز القوافل فيشترك فيه جميع القرشيين اغنياؤهم وفقراؤهم حتى ان هناك من كانوا يساهمون بدينار او بنصف دينار ، وينالون مقابل ذلك حصة نسبية من الارباح .

وكان القرشيون يتزوجون من اكثر القبائل قوة في السراة ليسهر احماؤهم على مصالحهم ، ويتعهدوا متاجرهم النقالة باكثر ما يمكن من الرعاية ، ويعهدون بقيادة القوافل في رحلتها الى احد اصحاب المصارف كأبي سفيان مثلاً ، فيتصرف هذا بالبضائع حسب خبرته الخاصة . واما القيادة العملية فيسلمونها الى « خرّيت مِرّيت »[1] . وفي اسواق الشام كان ابو سفيان او رئيس القافلة يتصل بالتجار ويقف على حالة الاسعار ، بعد ان ينزل ما يحمله في مستودعات ايلة وغزة وبصرى وحمص ، وهي مدن تكاد تكون عربية قبيل الدعوة .

---

١ دليل خِريت مِرّيت اذا كان ماهراً بالدلالة .

يتعامل اغنياء مكة بالربا فيقرضون الدينار بالدينار والدرهم بالدرهم ، اي بفائدة مائة بالمائة . ويكتب الاغنياء بذلك وثيقة يذكرون فيها مجموع القيمة والفائدة ، فاذا لم يدفع المستدين ما عليه يصبح سُخْرياً [١] هو واهله للدائن ، اي يعمل في خدمته لوفاء ما عليه . وبوسعه ان يفي ما عليه بدفعات يومية تدعى الخراج او الضريبة ، وهو اسم يطلق على ما يؤخذ من العبد يومياً مقابل انصرافه الى عمل معين . وهكذا نرى ان عدم الوفاء بالديون يكاد يجعل من المستدين عبداً لدائنه . لذلك رأينا الاسلام يسرف في نقد المرابين ومن يعمل معهم .

للبضائع المبيعة في مكة سعران : سعر مخفض للذين يدفعون عاجلاً ، وسعر مضاعف للدفع الآجل . وهذا لا يعني ان جميع البدو كانوا يسددون ما عليهم من الديون . فاصحاب المصارف والثروات كانوا يتعرضون للافلاس . والدليل على ذلك ما ورد في شعر الجاهليين في هذا الموضوع منه :

وكُلُّ غَريمٍ حَظُّهُ جَحْدُ مالِهِ اذا شَحَّ يَوماً أو أساءَ التَّقاضِيا

سَيَعْلَمُ مَكْحُولٌ اذا ضَمَّ رُقْعَةً لَها طِينَةٌ ، أيّ الفَريقَيْنِ رابِحُ

---

١ السخري بالضم المجبر على الخدمة دون مقابل .

طَمَسْتُ الذي في الصَّكِّ مِنِّي بِحَلْفَةٍ سَيَغْفِرُهـا الرَّحْمٰنُ وهوَ غَفُورُ

ولوَى بنَانَ الكَفِّ يَحْسِبُ رِبْحَهُ ولم يَحْسِبِ الْمَطْلَ الذي انا ماطِلُهْ
سَيَرْضى من الرِّبحِ الذي كان يرتجي بِبَعضِ الذي أعطَى وما هو نائلُهْ

اما داء المضاربة فقد كان منتشراً في جميع الطبقات والبيئات بين الرجال والنساء والخلطاء والاخلاط ، بين سكان البطحاء والظواهر . وكان يؤدي هذا الداء الى الافلاس . لذلك حرم القرآن الميسر بشدة وعنف . تعقد صفقات المضاربة حول ارتفاع الاسعار وانخفاضها ، وسلع القوافل المنتظرة ، وحاصلات الحقول المقبلة ، ونتاج الماشية وغنائم الغزوات . ويختزن بعض التجار الحبوب لرفع اسعارها عند محل الموسم ، او تأخر القافلة عن الوصول ، او خروج الاعراب عليها في الطريق .

نظام القافلة وبضائعها

هناك نوعان من القوافل : القافلة الخاصة وهي التي يجهزها رجل من المتمولين لحسابه الخاص ، والقافلة العامة او الرسمية ، وهي التي يشترك فيها جميع القرشيين تقريباً ، ويكون وصولها حدثاً هاماً يعادل اعظم الاعياد ، يخرج الناس لاستقبالها حاملين احياناً الطبول

يقرعون عليها فرحاً [١] . وعندما تتوجه منها تبقى على اتصال بها بواسطة الرسل الذين تبعث بهم في كل مرحلة الى مصدرها . وفي العودة يتقدمها جماعة من الرواد لابلاغ الاهلين خبر مجيئها . تسير القافلة باشراف خفير يحرسها ويكفلها بما له وبما لقبيلته من المكانة بين البدو . وهذا الخفير يقوم بالمهمة بنفسه او بارسال فرقة من الحراس عوضاً عنه [٢] ، يعاونه الدليل ، وهو مكلف ارشادها في الفيافي وتنظيم المراحل ، ويكون خبيراً بطرق الصحراء ومفاوزها وآبارها ومراعيها ، الى جانبها الدليل التجاري ، والخبير السياسي والعين . وقد يبلغ عدد الجمال في القافلة القرشية العامة احياناً ٢٥٠٠ جمل ، والذين يسيرون معها من التجار والادلاء والمرافقين يبلغ

---

١ يستقبلونها بالطبل والتصفيق فرحاً بها . وقد ذكر المفسرون ان دحية بن خليفة الكلبي رجع مرة بتجارة زيت وطعام من الشام والنبي يخطب يوم الجمعة على منبر مسجد المدينة ، فاستقبلها الناس كعادتهم بالفرح والطبول والتصفيق . وخشي المصلون ان يُسبقوا الى العير فيفوتهم الربح ، فتركوا الرسول يخطب وبادروا اليها في البقيع ولم يبق مع الرسول الا اثنا عشر رجلا . فنزلت الآية في ذلك « واذا رأوا تجارةً اوْ لهواً انْفَضّوا اليْها وتركوك قائما » الجمعة ، ١١ . راجع الافغاني : اسواق العرب ، ص ٢٥ ، دمشق ١٩٣٤ . وفي هذا الكتاب فصول قيمة تتعلق بتجارة العرب في الجاهلية .

٢ كانت مدينة تدمر تقيم التماثيل للخفراء .

عددهم احياناً ثلاثماية رجل

تجارة القوافل

من البضائع التي تنقل من مكة شمالاً او جنوباً الجلد ، يؤخذ من مصانع الطائف . يستعمله العرب رداء يتخذونه عوضاً عن الدرع في ساحة الحرب ، وفي تنعيل الخيل ، وفي الكتابة . ومن البضائع المنقولة الزبيب الطائفي . وكان القرشيون يسعون الى كسب صداقة بني سُلَيم كي يتخذوا منهم حلفاء ، لنزولهم في بقعة يكثر فيها الذهب والفضة . فتنقل القوافل القرشية هذين المعدنين الثمينين واحياناً آنية فضية من اليمن . وكانت رحلة الصيف الى اليمن في شراء الروائح والطيوب ، ورحلة الشتاء الى الشام . يشتري القرشيون من اليمن بضائع فارس والهند والشرق الاقصى ولاسيما الحرير الصيني والنسيج العدني ، وبضائع افريقية كالتبر والعاج والعبيد ، ويشترون من مصر وسورية الاقمشة ، ولاسيما الارجوانية ، وينقلون من بصرى الاسلحة ، رغم ان البيزنطيين كانوا يمنعون اخراجها .

---

١ كانت عير قريش في بدر الف بعير فيها اموال عظام . ولم يبق بمكة قرشي ولا قرشية له مثقال فصاعداً الا بعث به في العير . فيقال ان فيها خمسين الف دينار ويقال اقل . (راجع المقريزي : امتاع الاسماع ، ج ١ ، ص ٦٦) .

مصيف القرشيين

ليس في الحجاز منطقة اكثر تنوعاً ، وأجمل منظراً ، من الطائف وضواحيها . فهناك مجموعة من الاودية الممرعة الوفيرة المياه ، وكثير من السفوح الخضراء حيث ينبت الحب والشجر المثمر والغابات . وفي الجبال المجاورة مراع خصبة يتردد الى آجامها الحطابون والفحامون وجامعو القطران والاصماغ . وفي ضواحي المدينة مزدرعات غنية للثقفيين او اثرياء قريش . فالاسر المكية الغنية كانت تسعى جهدها في ان يكون لها قطعة من الارض في منطقة الطائف .

وكان اصحاب المصارف من القرشيين يحبون العيشة الساذجة فيها ، كأن غريزتهم البدوية قد استيقظت فحببت لهم الرجوع الى حياتهم الاولى . حفر السكان في بلدهم الاقنية ، وشيدوا الخزانات والاسداد عند ثغور الاودية ، لتساعد على ابقاء قسم من المياه لسقاية المزروعات . واحتفار الابار مما يفخر به الاسياد الاغنياء خاصة والعربي عامة . وقد ذكر الرحالة بوركارت انه عندما نزل الطائف تخيل انه قد حلّ في لبنان لخصب ارضها ، وكثرة ثمارها . ففيها العنب والزيتون والموز والدراقن والسفرجل والرمان والبطيخ الاصفر . تنقل هذه الحاصلات الى اسواق الحجاز ولاسيما سوق مكة . فتزدحم الطريق التي تصل المدينتين بالقوافل المترددة بينهما . ولخمر الطائف وخلها شهرة كبيرة ، فقد ذكرهما الشعراء

في قصائدهم . وزبيبها يضرب به المثل في الجودة والحلاوة . وقد عني ابو سفيان بنوع خاص بتجارة الزبيب والزيت فينقلها الى مكة ويبيعها هناك . وله في تجارته هذه شركاء من الثقفيين انفسهم . ويكثر في الطائف العسل ، ولاسيما الذي على حالته الطبيعية في الغيران .

كان فيها جماعة من اليهود جاؤوها على ما يقول البلاذري ، من المدينة هاربين او من بلاد اليمن ، فوضعت عليهم جزية مقابل اقامتهم فيها او اتجارهم . ورغم ذلك فقد ملكوا مناطق في الضواحي ، اشتراها منهم فيما بعد الخليفة معاوية .

كان لوقوع الطائف في النهاية الجنوبية الشرقية من الحجاز ، بالقرب من المدن التجارية اليمنية كجرش وتبالة ونجران ، اثر كبير في التجارة العربية العامة . فهي تشرف على الطرق التي تمر في نجد ، ومن اعاليها كان بوسع القرشيين ان يراقبوا سير القوافل الآتية من بابل ، ومن شواطىء الخليج العجمي للنزول في عكاظ حيث تقام السوق الرئيسية التي تأتي في الدرجة الثانية بعد مكة . وكانت عكاظ معبداً وسوقاً معاً ، تملك ثقيف وهوازن ما فيها من النخيل .

الى جانب كل هذا كان في الطائف صناعات مشهورة للنعال والسروج والخيم الجلدية والحياض ايضاً . وقال عنها الهمداني

« انها بلد الدباغ ، يدبغ بها الأهُبُ[1] الطائفية المعروكة[2] . »

العبادة الحجازية

ليس من الواقع في شيء القول ان العرب الحجازيين الذين نزل القرآن في بيئتهم كانوا لا يعرفون سوى الطواغيت مرجعاً روحياً لهم ، يعمدون اليها في مختلف احوالهم النفسية وحاجاتهم الدنيوية ، وانما يتجلى للدارس ، اذا تفحَّص الآيات القرآنية ، وراجع النصوص التاريخية المتعلقة بالعقيدة الحجازية آنذاك ، انهم كانوا ينقسمون شيعاً متعددة ، وان الدين لم يكن مشتركاً بينهم ، وانما هم فرق في ايمانهم ، بعضهم يدين بنصب خاص ، وآخر يعبد حجراً معيناً ، وثالث يطمئن الى العبادة الحنيفية او التأله ، ورابع يعتمد على الشياطين والجن[3] . ورجحت قبيل الرسالة فكرة الآله الواحد على مجموعة الآلهة ، واصبح الاهم فيها هو « الله » ، الذي يحاول القرآن بكل ما اتصف من

---

١ جمع الاهاب وهو الجلد من البقر والغنم والوحش ما لم يدبغ .

٢ الاكليل ج ٨ ص ١٢٠ .

٣ « قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجنّ أكثرهم بهم مؤمنون » سبأ ، ٤١ . — « وأنه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجنّ فزادوهم رَهَقاً » الجن ، ٦ .

البلاغة الخطابية ان يعرّف به ، ويعين صفاته ، ويبين الفروق بينه وبين آلهة المشركين . ولعلّ سورة الشورى المكية [١] ابلغ السور من هذه الناحية ، تكاد تلخص جميع الصفات الآلهية المنتثرة في السور الباقية من مكية ومدنية . وكأننا بالكتاب — وفكرةُ الآله الواحد لا تزال بعيدة عن الاذواق الحجازية — يحاول ان يجلو بابرع الاساليب الآله الذي يجمع في ذاته كل صفات القدرة والكمال والمعرفة .

ومنَ الثابت ان بعض الحجازيين عرفوا الله قبل الكتاب . ورد ذلك في كثير من السور [٢] وفي اشعار الجاهليين واخبار الرواة [٣] . وجعلوا له شركاء من الجن والشياطين والبنين والبنات [٤] .

---

١ « كذلك يوحي اليك والى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم ، له ما في السموات وما في الارض وهو العلي العظيم ، تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكةُ يسبّحونَ بحمد رَبّهم ويستغفرونَ لمنْ في الارضِ ألا انّ اللهَ هو الغفورُ الرحيم » الشورى ، ٣ ، ٤ ، ٥ .

٢ « ومن الناس مَن يتخذ من دُونِ الله أنداداً يحبونَهم كحب الله والذين آمَنوا أشدُ حباً لله ولو ترى الذين ظلموا إذْ يَرون العذاب ، أن القوةَ لله جميعاً ، وان الله شديدُ العذابِ » البقرة ، ١٦٥ .

٣ وباللاتِ والعزّى ومن دان دِينها
وبالله ان الله منهنّ أكبرُ (الاصنام ص١٧) .

٤ « وجَعلوا لله شركاء الجنّ وخَلقهمْ ، وخرقوا له بنينَ وبناتٍ بغير علمٍ سبحانه وتعالى عَما يصفونَ » الانعام ، ١٠٠ . — « ويجعلون لله البنات

ويبدو من آيات غيرها ان قسماً منهم اقروا بوجود الله ، غير انهم اتخذوا من دونه الأنصابَ شُفَعَاءَ [١] ويلخص الكتاب كل ذلك بقوله « ذٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ ٱلْبَاطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ » [٢] ، حتى ان بعض المشركين كانوا يعتقدون ان الله هو الذي خلق السموات [٣].

بعد ان نتبين الاختلاف في العقائد الحجازية بمطالعة السور القرآنية نقف على آيات تعرض بشيء من الاقتضاب لمظاهر تلك العبادات وخصائصها ، فنرى ان الغموض والابهام يغمرانها من كل النواحي . ولعلَّ ذلك ناجم عن تكاثر النزعات الدينية آنذاك ، وعن انه لم يكن للبلاد الحجازية ، بل للقريات نفسها ، بل للقبائل

سبحانهُ ولهم ما يشتهون » النحل ، ٥٧ . — « قل لو كان معه آلهة كما يقولون اذاً لابتغوا الى ذي العرشِ سبيلاً » الاسراء ، ٤٢ .

١ « ويعبدونَ من دون الله ما لا يضرهمْ ولا ينفعهمْ ويقولونَ هؤلاء شُفعاؤنا عند الله قلْ أتنبئونَ الله بما لا يعلمُ في السمواتِ ولا في الارضِ سبحانهُ وتعالى عما يشركون » يونس ، ١٨ . — « قل من رب السموات والارض قل الله قلْ أفاتخذتمْ من دونهِ أولياء لا يملكون لانفسهمْ نفعاً ولا ضراً » الرعد ، ١٦ .

٢ الحج ، ٦٢ .

٣ « ولئنْ سألتهمْ من خلقَ السموات والارضَ ليقولنّ الله قلْ أفرأيتم ما تدعونَ منْ دون الله انْ أرادنيَ اللهُ بضرّ هل هنّ كاشفات ضرّه ، أوْ أرادَني برحمةٍ هلْ هن ممسكاتُ رحمته » الزمر ، ٣٨ .

نفسها ديانة واحدة معينة من حيث الشعائر والعبادات والشخصيات الآلهية ، وانما كانت متداخلة متشعبة غامضة ، تستقر وتتفق في مظهر واحد ، وتختلف في مظاهر عديدة . ولعله — اذا استثنينا العبادة العملية من طواف واعتمار وعتر وحلق رأس — كان للهوى الشخصي اثر بيّن في الايمان . وكان للفرد ان يتصرّف في رأيه ، وفي تفكيره بربه ، وان يجعل له ما يشاء من الصفات الاضافية ، وان يشرك به من يشاء من آلهة الجيران والبلدان التي تعرف اليها [1] . لذلك لم يكن بالعجيب ان نرى كثيراً من القبائل ، وان تفردت بآله خاص ، لا يخالطها ضير في ان تكرم آلهة الآخرين ، ولا عجب ايضاً اذا كان نصارى العرب من غساسنة

---

١ اختص الساميون ، ولا سيما البابليون والاشوريون والكنعانيون والعرب ، بالتساهل في امر عبادتهم . فان سكان كل مدينة يحترمون اله المدينة المجاورة ويسعى ملوكهم جهدهم الى اكرام اكبر عدد ممكن من الآلهة في مدن مختلفة ، ليكونوا لهم احلافاً في كل مكان .

فبين الرسائل التي عثر عليها في تل العمارنة بمصر رسالة بعث بها ملك ميتاني (مملكة ميتاني كان يقطنها شعب ينتمي من حيث الجنس الى الحثيين ، يتنزل القسم الشمالي من العراق حتى نينوى) المدعو توشراتا الى عمانوفيس الثالث ملك مصر ، يبلغه فيها انه مرسل اليه الالهة عشتار الهة نينوى ، ويطلب منه ان يحسن استقبالها . ويبدو انها قامت في عهد خلفه برحلة كبيرة كهذه . وهكذا يتبين ان الآلهة كانت تعار ، ولم تكن لتحصر في منطقة واحدة ، او ليختص بعبادتها واكرامها شعب واحد او مجموعة واحدة من الشعوب .

ومناذرة يشتركون مع بني اعمامهم الوثنيين في الاحتفال باعياد آلهتهم ، ويهدون اليها الهدايا النفيسة .

فالباحثون الذين يذهبون الى ان الحجازيين كانوا على دين واحد لفي ضلال من امرهم ، لان المشركين تفرقوا شيعاً وكل حزب بما لديهم فرحون [1] .

جاء في القرآن شذرات عن تلك العبادات وميزاتها ، تبين منها ان البيت كان ملجأ للناس يأمنون فيه الشر [2] كما انه اشار

١ « منَ الذينَ فرّقوا دِينهمْ وكانوا شِيعاً ، كلّ حزبٍ بما لديهمْ فَرِحون » الروم ، ٣٢ .

٢ « فيه آياتٌ بيناتٌ مقام ابرهيمَ ومن دخلهُ كان آمناً » آل عمران ، ٩٧ . — « واذ قال ابرهيمُ ربّ اجعل هذا بلداً آمناً وارزقْ اهله منَ الثمرات منْ آمنَ منهمْ بالله واليوْم الآخر » البقرة ، ١٢٦ . والناس يقولون : « آمن من حمام مكة ومن غزلان مكة » ، وهذا شائع على جميع الالسنة (راجع الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ج ٣ ص ١٩٢) . وقد دخل مكة قوم من التجار ، قدموا من الشام في الجاهلية بعد قصي بن كلاب ، فنزلوا بوادي طوى تحت سمرات يستظلون بها ، فاختبزوا على ملة لهم ولم يكن معهم ادم ، فقام رجل منهم الى قوسه ، فوضع عليها سهماً ، ثم رمى به ظبية من ظباء الحرم ، وهي حولهم ترعى ، فقاموا اليها فسلخوها وطبخوها ليأتدموا بها . فبينما هم كذلك ، وقدرهم على النار تغلي بها وبعضهم يشوي ، اذ خرجت من تحت القدر عنق من النار عظيمة فاحرقت القوم جميعاً ، ولم تحرق ثيابهم ، ولا امتعتهم ولا السمرات التي كانوا تحتها .

الى قدسية الصفا والمروة ، وحتم على المؤمن ان يحج البيت ويعتمر بعد السعي بينهما [١] . اما الآلهة التي وردت اسماؤها فهي اللاتُ والعُزّى ومَنَاةَ الثالثة [٢] .

ولكن هذه الاساطير التي تنقل عن عصمة البيت والحرم لتخويف الناس لم تحل دون احتراق الكعبة نفسها . وذلك ان امرأة ذهبت تجمر الكعبة يوماً فطارت من مجمرتها شرارة فاحترقت كسوتها ، وكانت الكسوة عليها ركاماً بعضها فوق بعض . فلما احترقت الكعبة وهت جدرانها من كل جانب ، وتصدعت ، فجاء سيل عظيم وهي على تلك الحال ، فدخل الكعبة وصدع جدرانها ، فخافت قريش عليها وهابت هدمها . فبينا هم على ذلك يتناظرون ويتشاورون اذ اقبلت سفينة للروم ، حتى اذا كانت بالشعيبة ، وهي يومئذ ساحل مكة قبل جدة ، انكسرت فسمعت بها قريش فركبوا اليها فاشتروا خشبها ، واذنوا لاهلها ان يدخلوا مكة فيبيعوا ما معهم من متاعهم على ألا يعشروهم . وكان في السفينة رومي نجار بناء فقام ببنائها . وزوقوا سقفها وجدرانها وباطنها ودعائمها وجعلوا عليها صور الانبياء وصور الشجر والملائكة . فكان فيها صورة ابراهيم الخليل ، وصورتا عيسى وامه . فلما كان عام الفتح دخل الرسول البيت فجيء بثوب بلّ بالماء ، وامر بطمس تلك الصور ، فطمست ، ووضع كفه على صورة وقال : امحوا جميع الصور الا ما تحت يدي . فرفع يده فاذا هي صورة عيسى وامه . — (راجع الازرقي : تاريخ مكة ج ١ ص ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٤) .

١ « انّ الصفا والمروةَ من شعائر الله فمنْ حج البيت او اعتمرَ فلا جُناحَ عليه أنْ يطّوّفَ بهما ومنْ تطوعَ خيراً فانّ الله شاكرٌ عليم » البقرة ، ١٥٨ .

٢ « افرأيتمُ اللاتَ والعزّى ومنوةَ الثالثةَ الاخرى ، ألكم الذّكرُ وله الانثى » النجم ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ .

ولعل القرآن ينظر الى ما يعبده المشركون نظره الى الشياطين وجوهر الشر . فالمؤمنون يقاتلون في سبيل الله ، والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت [١] .

وتكررت الآيات التي وردت فيها لفظة « القيامة » ، فيهدد الكتاب الكافرين والمنافقين بالويل والثبور ، وبتقديم الحساب عن سيئاتهم يوم الحشر . فلو كانت هذه اللفظة لا تدل عند الجاهلي على ما تدل عليه بعد الاسلام لما ورد ذكرها ، ولما كان لها اثر في نفوس الذين وجهت اليهم من متحضرين ومتبدين ، ولكان تهديداً بامر لا يفقه الناس مرماه وفحواه . لذلك يمكننا القول ان الجاهلي الذي نزل القرآن له كان يؤمن بما يسميه القيامة وما ينتج عنها من مصير حسن او سيء . فهو اذاً مؤمن بحياة اخرى بعد هذه الدنيا . اما كيف تكون ؟ وما هو الشكل الذي يتخذه كيانه في العالم الآخر ؟ كل هذه امور تصعب الاجابة عنها بما يمكن الاطمئنان اليه . وانما الامر الثابت هو ان الكتاب كان كثير التأثير في نفوس سامعيه ، ينقر على اوتارهم الحساسة « اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحديثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرّ مِنْهُ

١ « الذين آمنوا يقاتلون في سبيل اللهِ والذينَ كفروا يقاتلونَ في سبيل الطاغوت » النساء ، ٧٦ .

جُلودُ ٱلذينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم ، ثُمَّ تَلِينُ جُلودُهُمْ وَقُلوبُهُم إِلى ذِكْرِ اللهِ ذٰلكَ هُدَى ٱللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَما لَهُ مِن هَادٍ »[1].

اليهود في الحجاز

كان اليهود ينزلون اخصب المناطق حول المدينة ، واخصب الواحات في الطريق بين الحجاز وسورية ، ولهم مقبرة في مكة ، غير انه لم يُعترف لهم بحق الانتساب اليها او الى احدى اسرها .

وأرغم يهود خيبر على التحالف مع بني فزارة ، فيتناول العرب نصف ما تنتجه الواحة مقابل حراستهم الجالية اليهودية من غزوات البدو الآخرين . ثم انتهى الاعتقاد بالعرب مع مرور

---

١ الزمر ، ٢٣ .

يسجل الكتاب بوضوح وجلاء الحياة الحجازية الجاهلية بكل ما كانت تزخر به من العواطف والاهواء والميول والنزعات ، وما كانت تضطرب به من ايمان بالنصرانية واليهودية والحنيفية والشركية ، ومن تجارة وربا وميسر ومجون ، ومن اعتقادات خرافية كالتطير والجن والشياطين الموحية ، ومن انقسام العرب متحضرين ينصرفون الى الاتجار وجمع المال ، فلا يعنون بآخرتهم الا قليلاً ، واعراباً ينصرفون الى صحرائهم يقضون في امنها ما انتزعوه في غزواتهم . فالكتاب وان كان في الاسلام الامام الاكبر الذي اتبعه المسلمون في حياتهم المدنية والدينية فهو ايضاً سجل لحياة العرب قبيل الرسالة .

الزمن ، الى انهم هم اصحاب هذه الاراضي ، انزلوا فيها اليهود والحضر لزراعتها .

كان لليهود في المدينة وخيبر مدارس ، وصندوق مال تجمع اليه الضرائب التي يفرضها الدين الاسرائيلي ، وتنفق في مصلحة المجموع . ولهم لغة خاصة هي خليط من العربية والآرامية ، تكثر فيها التعابير السريانية . وقد اثار تعجرف اليهود واعتزازهم بنفسهم حفيظة العرب مع انهم قد اشتهروا قبل الاسلام بالتساهل الديني . ومنذ العام السادس للهجرة لم يبق لليهود جامعة تربطهم ، فانتزعت منهم اراضيهم وطردوا منها ، ولم يبق منهم الا افراد معدودون : تجار في المدينة ، ومزارعون في منطقة خيبر ، يعملون في خدمة المسلمين .

النصارى في الحجاز

كان للحجاز علاقات تجارية زاهرة بنجران وسائر البيئات في اليمن . وقد ورد ذكر النجرانيين النصارى في السيرة ، ينقلون الى قريش اقمشتهم التي يستعملها المكيون في ستر الكعبة واحجارهم المؤلهة . وكان اللخميون يفدون لحضور اسواق العرب ، ولاسيما سوق الحجاز في منى ، ثم يزورون مكة ، ويترددون على مصارفها ومتاجرها واسواقها . اما الاديار فكانت كثيرة في شمالي الحجاز ، على طول الطريق التجارية الآخذة نحو سورية وواحات وادي

القرى ومدين وتبوك ، وهذه الاخيرة كانت مقر الحامية من رجال الغساسنة .

وكان الانباط ، اي سكان سورية الاصليون ، يحملون الى مكة الحبوب والزيوت والخمور . وكان من عادة النبي ان يتردد على حوانيت الصناع النصارى واكواخهم في مكة فيتحدث اليهم في الشؤون الدينية ، حتى اتهمه الخصوم بانه يستقي منهم الاخبار التي يسردها على سامعيه . ولا شك ان الاطباء والجراحين واطباء الاسنان كانوا من النصارى في مكة . وكان المكيون يخصون الغساسنة النصارى بالاكرام فينزلونهم البطحاء اي قلب المدينة ، منزل الاسر الكريمة فيقيمون في جوار الكعبة . وكثيرون من النصارى من كانوا يوفقون بين عقائدهم التوحيدية واكرامهم الكعبة وغيرها من المناسك الوثنية . فحلف شعراؤهم بالله وباللات وبالانصاب وبالبيت الحرام دون تردد ، وحجت جماهيرهم الى مكة ومنى .

لم يكن في مكة جماعة نصرانية وطنية الا ما حققه التاريخ من وجود بضعة نصارى لا يشك في شخصيتهم ، وقد لا يتجاوزون العشرة من القرشيين الصميمين ، يضاف اليهم بعض الاحلاف الملتحقين بالاسر المكية ، وسواهم من العبيد والمغامرين والصعاليك وباعة الخمر والتجار الذين يمرون بمكة وجوارها ،

فيقيمون مدة عقد الاسواق ، او يدخلون مأجورين في الجيش المكي ، او يقومون ببعض المهن البسيطة ، وهم غالباً من الاحباش .

اسباب ظهور الوثنية

هنالك روايات ثلاث حرية بالعناية تعرض لمنبع الوثنية في البلاد العربية ، اشار اليها مؤرخو العرب ورواتهم ، لعلها بعض ما كان يتناقله شيوخ القبائل في سمراتهم حول النار المشبوبة . وهي دون شك احرى الروايات بالتصديق والقبول لقربها من المعقول ، ولشدة الشبه بينها وبين الاسباب التي دعت الشعوب الاخرى من بابليين ويونان ورومان الى اعتناق الوثنية .

والروايات الثلاث تتفق على امر واحد نراه عند جميع المؤرخين ، وهو ان العرب قبل تعرفهم الى الانصاب ، كانوا على دين ابراهيم الخليل . ولعله دين يقوم على الاساس العبري دون ان يستند الى تعاليم موسى نفسه . فالاله واحد قوي جبار ، يتصل بالانسان مباشرة ويكافئه على الحسنات ، ويعاقبه على السيئات . غير ان عناصر جديدة تسربت الى حياة العرب ، فجعلتهم يهملون هذا الدين السماوي ، ويتحولون الى عبادات اخرى لا تمت الى التوحيد بصلة ، ولا الى الاله الحق بنسب .

الرواية الاولى : ان اسماعيل بن ابراهيم لما سكن مكة ،

وولد له بها اولاد كثر ، حتى ملأوا مكة ، ونفوا من فيها من العماليق ، ضاق عليهم المقام ووقعت بينهم الحروب والعداوات . واخرج بعضهم بعضاً ، فتفسحوا في البلاد لالتماس المعاش . وكان لا يظعن من مكة ظاعن الا احتمل معه حجراً من حجارة الحرم ، تعظيماً له وحُباً بمكة . فحيثما حلوا ، وضعوه وطافوا به كطوافهم السابق ، كأنهم يعظمون الكعبة والحرم . ومع ذلك فهم يحجون ويعتمرون على ارث ابراهيم واسماعيل . ثم انتقل بهم الامر الى ان عبدوا ما استحبوا ونسوا ما كانوا عليه ، واستبدلوا بدينهم غيره فعبدوا الاوثان[1] .

الرواية الثانية : تقول انه لما تغلب عمرو بن لحي الخزاعي على جُرهم واجلاهم عن الكعبة تولى حجابة البيت بعدهم . ثم اصابه مرض شديد فوصف له الاطباء الذهاب الى البلقاء في الشام ليستحم بمائها الحار ، فيشفى مما به . فلما اقام بها مدة وجد اهلها يعبدون الاصنام فسألهم عنها فقالوا : « نستسقي بها المطر ونستنصر بها على العدو . » فطلب منهم ان يعطوه منها ففعلوا . فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة[2] .

---

١ ابن الكلبي : كتاب الاصنام ص ٦ . الازرقي : اخبار مكة ج ١ ، ص ٦٦ — ٦٧ .

٢ الاصنام ص ٨ . المسعودي : مروج الذهب ج ١ ، ص ٣٦٧ .

الرواية الثالثة : تقول ان بعض الالهة ، ولاسيما وَدّ وسُواع ويغوث ويعوق ونسر ، كانوا قوماً صالحين ماتوا في شهر واحد . فجزع عليهم ذوو قرابتهم ، فنحت احد المثالين لهم خمسة اصنام على صورهم ، ونصبها لهم . فكان الرجل يأتي اخاه وعمه وابن عمه ، فيعظمه ، ويسعى حوله ، حتى ذهب الجيل الاول ، ثم جاء جيل آخر فعظموهم اشد من تعظيم الاولين . فظن اولاد هؤلاء واحفادهم ان سلفاءهم انما عظموهم لما يرجون من شفاعتهم عند الله ، فعبدوهم ، وعظم امرهم واشتد كفرهم [1] .

واشار البخاري الى هذه الرواية في صحيحه ، فرأى ان الاوثان التي كانت في قوم نوح صارت الى العرب بعد . اما وَدٌّ فكانت لكَلْبٍ بِدَوْمَةِ الجَندَلِ ، وَاَمّا سُوَاعٌ فلِهُذَيْلٍ ، وَاما يَغُوث فلِمُراد ثُمَّ لِبَنِي غُطَيْفٍ بالجَوفِ عندَ سبَا ، واما يعُوق فكانت لهَمْدان ، ونَسْر لِحِمْيَر لآل ذي الكلاع . كلها اسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا اوحَى الشيطانُ الى قومهم ان انصِبُوا الى مجالسهم التي كانوا يجلسون انصاباً وسمّوها باسمائهم ، ففعلوا فلم تعبد حتى اذا هلك اولئك وتنسخ العلمُ عُبدت [2] .

---

١ الاصنام ص ٥١ -- ٥٢ .

٢ صحيح البخاري ج ٦ ص ١٦٦ . كانت الاصنام شائعة في الجاهلية فلم

اشهر الانصاب الحجازية

مناة : اقدم الاصنام كلها ، منصوب على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد ، بين المدينة ومكة . كانت العرب جميعاً تعظمه ، وتذبح حوله . يعظمه الاوس والخزرج وغسان واهل الشام ومن ينزل المدينة ومكة ، ويذبحون له ويهدون اليه ، ويحجون . يقفون مع الناس المواقف كلها ولا يحلقون رؤوسهم ، فاذا جاؤوا نصب مناة حلقوها ، واقاموا عنده ، لا يرون لحجهم تماماً الا بذلك .

وظلت مناة على ذلك تعظمها قريش وجميع العرب حتى خرج الرسول من المدينة سنة ثمان من الهجرة ، وهو عام الفتح . فلما سار من المدينة اربع ليال او خمساً ، بعث علياً اليها فهدمها ، واخذ ما كان لها ، فاقبل به على الرسول ، فكان فيما أخذ سيفان كان الحارث بن ابي شمر الغساني ملك غسان اهداهما اليها [1] .

اللات : ثم اتخذوا اللات بعد مناة ، وكانت في الطائف . وهي صخرة مربعة سدنتها بنو عتاب بن مالك من ثقيف .

يكن من قريش رجل الا وفي بيته واحد منها . يطاف بها في الاسواق فيشتريها البدو ويذهبون بها الى بيوتهم ، فاذا دخلوا خيامهم تمسحوا بها ، واذا خرجوا تمسحوا بها ايضاً تبركا . (راجع الازرقي ج ١ ، ص ٧٢) .

١ الاصنام ص ١٣ ، ١٤ ، ١٥ .

جعلوا عليها بناء. عظّمتها قريش وجميع العرب، وسمت بها زيد اللات، وتيم اللات. ولم تزل كذلك حتى اسلمت ثقيف، فبعث الرسول المُغيرةَ بنَ شُعبةَ فهدمها وحرقها بالنار. وفي ذلك يقول شدّادُ بنُ عارضٍ الجُشَمِيُّ حين هُدِمتْ وحُرِقتْ ينهى ثقيفاً عن العَوْد اليها والغَضَب لها:

لا تَنصُروا اللاتَ إنَّ اللهَ مُهلِكُها ... وكيفَ نَصرُكُم مَن ليسَ يَنتَصِرُ
إنَّ التي حُرِقتْ بالنّارِ فاشتَعلَتْ ... ولَم تُقاتِلْ لَدَى أحجارِها هَدَرُ[1]

العُزّى: هي احدث من اللات ومَناة. كانت بواد يقال له حُراض بأزاء الغُمَير، عن يمين المُصعِد الى العراق من مكة. عظّمها القرشيون وسمّوا بها عبد العُزّى. وهي اعظم الاصنام عندهم، يزورونها ويهدون لها، ويتقربون عندها بالذبح. وحَموا لها شعباً من وادي حُراض يقال له سُقام، يضاهون به حَرَمَ الكعبة. ولها مَنحَر ينحرون فيه ضحاياهم يقال له الغَبغَب. فاذا نحروا يقسمون لحوم هداياهم فيمن حضرها وكان عندها. وقريش تخصها بالاعظام. قال زيدُ بنُ عمرو بن نُفَيل، وكان قد تأله في الجاهلية وترك عبادتها وعبادة غيرها من الاصنام:

---

١ الاصنام ص ١٦ — ١٧. تبين من النصوص القديمة ان ما حرق من اللات هو البيت الذي بني لها، والاستار التي تطيف بها.

تَرَكْتُ اللَّات والعُزّى جَمِيعاً كَذلك يَفْعَلُ الجَلْدُ الصَّبُور
فَلَا العُزّى أَدِينُ ولا ابْنَتَيْهَا ولا صَنَمَيْ بني غُنْم أَزُورُ
ولا هُبَلًا أَزورُ وكانَ رَبًّا لنَا في الدَّهْرِ إِذْ حِلْمِي صَغِيرُ

وسدَنَةُ العُزّى بنُو شَيْبَان بن جابر بن مرة من بني سُليم حلفاء بني هاشم . ولم تزل العزى كذلك حتى بعث النبي ، فلما كان عام الفتح ارسل خالد بن الوليد فانطلق فعضد الشجرة التي تحل فيها وقتل دبية سادنها [1] .

ولم تكن قريش ومن اقام بمكة من العرب يعظمون شيئاً

---

١ كانت العُزّى شيطانة تأتي ثلاث سَمُرات . فلما افتتح النبي مكة بعث خالد بن الوليد فقال له : ايتِ بطنَ نَخْلة ، فانك تجد ثلاث سَمُرات ، فاعْضِدِ الاولى . فأتاها فعَضَدَها . فلما جاء اليه قال : هل رأيت شيئاً ؟ قال : لا . قال : فاعْضِدِ الثانية . فاتاها فعضدها ، ثم أتى النبيَ فقال : هل رأيت شيئاً ؟ قال : لا . قال : فاعضد الثالثة . فاتاها . فاذا بحبشيّة ناشرة شعرَها ، واضعة يدها على عاتقها تَصرِفُ بانيابها ، وخلفها دُبَيّةٌ سَادِنُها ، فلما نظر الى خالد قال :

أُعزّاءُ شُدّي شَدّةً لا تُكذّبي عَلى خَالدٍ ألقي الخِمارَ وشَمِّري
فانكِ الاّ تَقتلي اليومَ خالداً تَبوئي بِذلٍ عَاجِلًا وتَبصري

فقال خالد :

يا عُزّ كُفرانكِ لا سُبحانكِ اني رأيتُ اللهَ قَدْ أهانكِ

ثم ضربها ففلق رأسها فاذا هي حُمَمَة . ثم عضد الشجرة ، وقتل دُبية السادن ، ثم أتى النبي فأخبره . فقال : تلك العزى ، فلا عُزى بعدها للعرب . انها لن تعبد بعد اليوم . (الاصنام ص ٢٥ ــ ٢٦ . الازرقي ص ٧٥ ــ ٧٦) .

من الاصنام اعظامهم العزى ثم اللات ثم مناة . وهي تخص العزى دون غيرها بالزيارة والهدية ، وذلك لقربها منهم [1] .

هُبَل : ولقريش ايضاً اصنام في جوف الكعبة وحولها ، اعظمها عندهم هُبَل . وهو حسب رواية ابن الكلبي من عقيق احمر على صورة الانسان ، مكسور اليد اليمنى . ادركه المكيون على هذه الحالة ، فجعلوا له يداً من ذهب . ويقال ان الذي جاء به هو عَمرو بن لُحَيّ الذي تقدم ذكره . قدم بالصنم هبَل فنصبه على البئر [2] ، وامر الناس بعبادته فكان الرجل اذا قدم من سفر بدأ به ، فزاره وحلق رأسه عنده . وكان امامه في الكعبة سبعة اقدح . كل قِدْح منها عليه كتابة . قِدْح فيه « العقل » اي الفدية ، وهو المال الذي يدفع ثمن الدم المراق . فاذا اختلفوا في العقل من يحمله منهم ضربوا بالاقدح السبعة عليهم . فان خرج « العقل » فعلى من خرج له حمله . وقِدْح فيه « نعَم » للامر . فاذا ارادوا امراً يضرب به في الاقدح . فان خرج قدح فيه « نعم » عملوا به . وقدح فيه « لا » ، فاذا هموا

١ الاصنام ص ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ .

٢ البئر هذه كانت على يمين من دخل الكعبة ، عمقها ثلاث اذرع ، حفرت هنالك ليكون فيها ما يهدى الى الكعبة .

بامر ضربوا به في الاقدح فاذا خرج ذلك لم يقدموا على ما يريدون . وقدح فيه «صريح» . وآخر فيه «ملصق» . وثالث فيه« من غيركم»، لمعرفة نسب شخص شك في اصله . وقدح فيه «المياه» . فاذا ارادوا ان يحفروا للماء ضربوا بالاقدح ، فاذا خرج هذا القدح سعوا وراء الماء باحثين [1] .

وتتم هذه العملية بدفع مائة درهم وجزور يعطونها صاحب الاقدح الذي يضرب بها [2] .

---

١ وقد استقسمت بعض قريش بالازلام عندما اعترض المسلمون عيرهم في بدر ليقر رأيهم على الخروج او البقاء . راجع المقريزي : امتاع الاسماع ج ١ ص ٦٧ .

٢ راجع الاصنام ٢٧ — ٢٨ . الازرقي : اخبار مكة ج ١ ص ٦٨ .

يعتقد جرجي زيدان في « انساب العرب القدماء » ان لفظ هبل لا اشتقاق له في العربية من معناه . ويرى انه عبراني او فينيقي . اصله « هبعل » ومعنى بعل السيد . ثم قال ان « الهاء » في العبري اداة التعريف مثل « ال » العربية . فباضافة هذه الاداة الى بعل ، يريدون « الاله الاكبر » . اما العين الزائدة فسهل اهمالها بالتخفيف ، ثم ضياعها بالاستعمال ، وخصوصاً في لفظ بعل، لان الكلدانيين كانوا يلفظونه « بل » باهمال العين ، وهو اسم هذا الاله عندهم . وربما كان المؤابيون يلفظونها « هبل ». وذهب اورت ودوزي الى ان « بعل » الاسرائيلي هو « هبل » القرشي في مكة . وخلاصة ما يقوله نولدكه ان بعل ليس عربياً ، بل اخذه العرب من جزيرة سيناء ، وعرفوه لفظاً ومعنى . وقد ورد في القرآن « اتدعون بعلاً وتذرون احسن الخالقين . » فقال

ذو الخلصة : كانت مروة بيضاء منقوشةً ، عليها كهيئة التاج . وكانت بتبالة بين مكة واليمن على مسيرة سبع ليال من مكة ، سدنتها بنو امامة من باهلة بن أعصر تعظمها وتهدي لها خثعم وبجيلة وأزد السراة ومن قاربهم من بطون العرب من هوازن [1] . وتقول كتب التاريخ ان الذي نصبها هو عمرو بن لحي . فكان العرب يلبسونها القلائد ويهدون اليها الشعير والحنطة ويصبون عليها اللبن ، ويذبحون لها [2].

ولما فتح الرسول مكة واسلمت العرب ، ووفدت عليه وفودها ، قدم عليه جرير بن عبد الله مسلماً فقال له : يا جرير الا تكفيني ذا الخلصة ؟ فقال : بلى . فوجه اليها . فخرج حتى

« بعلا » ولم يقل « هبلا » . وفي هذا ما يدل على انه كان يسمى بعلا عند بني اسرائيل . ويعتقد عبد المجيد خان ان هبلا كان اله الخصب في عقيدة العرب . وهو الاله الذي عناه عمرو بن لحي حينما قال : ان ربكم يصيف باللات ليرد الطائف ، ويشتو بالعزى لحر تهامة . راجع عبد المجيد خان الاساطير العربية في الجاهلية ، ص ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ .

١ حدث ان رجلا من هوازن اتاها وكان ابوه قتل فاراد الطلب بثاره فاستقسم عندها بالازلام فخرج السهم ينهاه عن ذلك فقال :

لو كنتَ يا ذا الخلَصِ الموتُورا مثلي وكان شيخُك المقبورا
لم تَنه عنْ قتل العُداةِ زُورا

٢ الازرقي ص ٧٣ .

اتى بني أحمس من بَجيلة فسار بهم اليها فقاتلته خَثْعَمُ وَباهلةُ دونها . فقتل من سدنتها من باهلة يومئذ مائة رجل ، واكثر القتل في خَثْعَم ، وهدم بنيان ذي الخلصة واضرم فيه النار فاحترق[1] .

سَعْد : كان بساحل جُدَّة ، وهو صخرة طويلة ، اقبل رجل من بني كنانة بابل له ليقفها عليه تبركاً به . فلما أدناها منه نفرت ، وكانت تُهراق عليه الدماء ، فذهبت في كل وجه وتفرقت عليه . فتناول حجراً فرماه به وقال : لا بارك الله فيك إلهاً ، أَنَفَرْتَ عَلَيَّ إبلي ، ثم خرج في طلبها حتى جمعها وانصرف عنه وهو يقول :

أَتَيْنَا الى سَعْدٍ لِيَجْمَعَ شَمْلَنَا فَشَتَّتَنَا سَعْدٌ فَلَا نَحْنُ مِنْ سَعْدِ
وَهَلْ سَعْدُ إلاَّ صَخْرَةٌ بِتَنُوفَةٍ مِنَ الأَرْضِ لا يُدْعَى لِغَيٍّ وَلا رُشْدِ[2]

الشعائر الوثنية كان للعرب نوعان من الحجارة المؤلهة : المحمولة او المنقولة ، والحجارة الثابتة . ويصطحبون في غزواتهم كاهناً وسادناً يخدم الاله وبعض الطائفين والقائفين ، كي يرشدوا المحاربين بمعلوماتهم الغيبية قبل الرحيل وفي اثناء الطريق .

---

١ الاصنام ص ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦

٢ الاصنام ص ٣٦ ، ٣٧ .

لم يكن يتميز رجال الدين باي مظهر من المظاهر الخارجية ، فلا ثوب خاص لهم ، ولا رتبة ولا رسامة ولا اعداد للوصول الى هذه الدرجة ، ولا فرق في اساليب العيش بينهم وبين ابناء القبيلة ، ولا يتراجعون عن غزو ولا اهراق دم . يدعى الكاهن احياناً بالحكم ، فيستشار قبل القيام بالغزوات والغارات او في الملمات . ولا تنصب القبة على الحجر الا في الخطوب الكبرى ، والمواقع التي يقرر فيها مصير القبيلة . وللقبة والجمل الحامل صفة التقديس . قال الكميت :

وقد آلتْ قبائلُ لا تُوَلّي مَناةَ ظُهورَها مُتَحَرِّفينا

كانوا يخصون المرأة بالمركز الافضل في حياتهم الدينية ، فيفوق عدد الساحرات والعرافات عدد العرافين . وفي مكة نفسها كان مفتاح الكعبة في يد امرأة هي بنت حليل الخزاعي ، وسلمته لقصي ، كما تقدم معنا .

يمكننا ان نتصور تلك الحفلات التي كانت تقام في مكة مدة «العمرة» في شهر رجب : شوارع ضيقة مزدحمة بالعابدين والمتفرجين ، مواكب متتابعة تطوف بحجارة الاحياء ، جمال مترنحة تحمل القباب المتمايلة الفاقعة الالوان ، يقودها زعماء القوم ، ويسير وراءها على الجمال ايضاً نساء من قريش ، وقد حللن الشعور وضربن الدفوف والغرابيل ، وصحن باصوات

الفرح والحماسة حتى يصل الجميع الى فناء الكعبة .

وكان لاهل مكة شعائر خاصة ، لا يشاركهم فيها سواهم من عامة العرب . فقد تركوا الوقوف مع الناس على عرفة والافاضة منها ، وابتدعوا لانفسهم البقاء في الحرم . وكانوا يحرمون ايضاً على انفسهم الاستظلال بغير بيوت الادم ما داموا محرمين . وحظروا على سواهم الاكل من غير طعام الحرم . فمن جاء حاجاً او معتمراً ، وكان معه طعامه حرم عليه الاكل منه . ولم يقتصر تحكمهم بغيرهم على هذا ، بل تعداه الى الثياب فمنعوا الناس الطواف بالبيت اول ما يقدمون الا بثياب الحمس اي قريش ، فان لم يجدوا منها شيئاً طافوا عراة . ومن طاف بغير ثياب الحمس حرمت عليه بعد الطواف فيلقيها ، ولا ينتفع بها . وهكذا استغلوا سذاجة من حولهم من الاعراب ليتفردوا بالحرمة والتقديس ، فيأمنوا بعدها على تجارتهم ، ويستفيدوا من هذا التمويه ثراء وبسطة عيش . فلما جاء الاسلام اسقط هذا جملة بقول الكتاب « ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ[1] » .

---

١ البقرة ، ١٩٩ . راجع الافغاني : اسواق العرب ، ص ٦٣ ، ٦٤ .

الجن

لم يكن الجاهلي ليقتصر في تفكيره على النسب بين الاجسام وترافقها ، بل كان يعتقد ايضاً بان هناك عالماً غير منظور من المخلوقات والعوالم احس بوجودها بما كانت تصوره له مخيلته في صحرائه ، ولياليه المقمرة الهادئة والاصوات الخفية التي تطرق اذنيه . فللعين سراب وللاذن سراب ، يسمعه كلاماً سوياً ومعنى خفياً ، فيخيل اليه انه ليس وحده بصاحب الصحراء او القرية او الواحة ، وانما هناك من يشاركه في اقتسام القليل من خيراتها . وهذا الكائن المزاحم لا يمكن وصفه بسهولة وانما عرف باسم الجني . يعود الاعتقاد به في الحجاز الى اقدم العصور . فهو يرقى الى زحف القحطانية نحو الجنوب — اذا صح ان هناك قحطانية وعدنانية — وفي رأي الجاهلي ان الجن يطيرون الى السماء ويلقون الملائكة ، ويتعلمون منهم ، ويقفون على اخبار السماء . وقد اقتسم هؤلاء نِعَمَ الوحي مع الحجازي ، عندما نزلت الرسالة ، فآمن نفر منهم وكانوا من اكثر المسلمين تقى وورعاً [1] .

الفكرة اللاهوتية

ان العربي الذي نزل القرآن في بيئته ما كان مجرداً من الشعور اللاهوتي . او بكلام آخر لم يكن ليحصر تفكيره وجهده في البيئة الطبيعية

---

١ راجع بحثاً لنا في مجلة الاديب ، تموز ١٩٤٤ ، ص ١٦ — ١٩ .

المحيطة به ، وان هو لم يتوصل الى التفكير بالمجردات العقلية والمعاني الخالصة من الجسمية . ولكن من الثابت لمن انعم النظر بنواحي تفكيره ان هذا العربي الحجازي المادي كانت تتنازع نفسه مشاغل لاهوتية متعددة .

لم يجرد العالم في ذاته وفي ما يقع عليه حسه من المبصرات والمذوقات والمشمومات والمسموعات والمحسوسات . ولم يكن عادة ليعيد المعلول الى علته المباشرة . وانما كان يراقب على مرور الاجيال وقوع الحادث ، فيرى ان هنالك حوادث اخرى قليلة او كثيرة ترافقه في حدوثه ، فينسب اليها العلية في حين ان علاقتها به هي علاقة المرافقة والجوار او الاتفاق . فهو مثلاً اذا ابصر الافق قد اكفهر ، وبدت السحب سوداء ، ايقن انه لا بد من هطول المطر . اما اذا مال لون الغيوم الى الاحمرار او الاغبرار اعتقد ان المطر لن يعقبها ؛ وانها غيوم بدون ماء . ومن ذلك استنتج امرين : الاول ان سواد الغيم هو سبب المطر ، والثاني ان الاحمرار سبب انحباسه . في حين ان هاتين الصفتين مرافقتان لعملية تألف الغيوم ، وليستا سببا لجودها بالماء او حبسه . وهذا الطور الذي مر فيه الحجازي قبيل الاسلام ، يتقدم بقليل طور الاختبار والتجربة التحليلية التي تؤدي غالباً الى اكتشاف السبب المباشر الحقيقي .

المعارف الاولية

من المغالاة ان نقول ان الجاهليين ، ولا سيما الحجازيين ، كانوا يُعنَون بامر العلوم من نظرية وعملية . ومن المغالاة ايضاً ان نزعم انهم كانوا ينظمون مدارسهم بشكل يسمح لاحدائهم ان يقتبسوا المبادىء العلمية ، او ان نقول انهم قد اهتدوا الى السبل الحديثة من البحث والتحقيق العلميين ، لان حجازيي ذلك العهد كانوا ، كما تقدم معنا ، على نوعين : حضر لا يزيدون على ١٧ بالمائة من مجموع السكان . والباقون متبدون ينصرفون الى حياة هي اقرب انواع المعيشة الى الحياة البدائية .

كانت جد بسيطة ، فيكتفي البدوي بقليل من اللبن وشيء من التمر . وهما العنصران اللذان يقوم عليهما كيانه الجسماني . ولا يتوصل الى بعض القمح الا الاسياد منهم وهم قليلون . وكان هؤلاء بحاجة ماسة الى الثياب والى السلاح ، فلا يكتفون بما ينتجون بل يجمعون ما يفيض من نتاج ماشيتهم ويصارفون به حاجاتهم من هذين الصنفين .

الطب الجاهلي

لم يكن لديهم طبعاً مدارس لتخريج الاطباء والعلماء . والبدوي قليلاً ما يصيبه

الداء ، لان صاحب الجسم النحيل لا يتخم ليمرض ، والبادية لا تبقي في قيد الحياة الا الاقوياء الاشداء ، الذين تساعدهم مناعة اجسامهم على مدافعة الامراض الطارئة .

غير ان الحضَر ولاسيما المترفين منهم ، على ما تميزوا بـه من لين في العيش ، كانوا احياناً باسّ الحاجة الى من يُعنى بامـور صحتهم . فهم في تنقلاتهم من مكان الى آخر في رحلاتهم الموسمية وفي اتصالهم بالاجانب الوافدين الى اسواق الحجـاز ، معرضون للامراض الكثيرة المنتشرة . لذلك كانوا يترددون على الاطباء ، ويتقيدون بمعالجـاتهم ، وهؤلاء يعتزون بمهنتهم ، ويسرفون في اعتزازهم فيبذلون طبهم مقابل الكثير من المال ، ولا يرضون في المجتمع الا بالمكانة الفضلى والمقام الارفع . واغلبيتهم من الاجانب ، وربما كانوا من النصارى واليهود الوافدين من اليمن او الشام . وكان العرب انفسهم يرسلون اولادهم الى فـارس ، الى مـدرسة جنديسابور . فيتخرجون هنـاك في مارستاناتها في العلوم الطبية النسطورية ، ويعودون الى بلادهم فيداوون المرضى ، ويجعلون لانفسهم مكانة سامية بين مواطنيهم .

لم تكن هـذه المهنة منظمة ، فليس من شهادات قانونية ، ولا رقابة من الملأ واصحاب القوة ، وانما تقوم شهرة المطبب على ثقة المتطبب به .

واشهر هؤلاء الاطباء الوطنيين الحارث بن كلدة [١] ، يمثل الطب الرسمي القائم على دراسات واختبارات رسمية في مؤسسة جنديسابور .

غير ان هؤلاء الاطباء النظاميين يؤلفون عند العرب نفراً ضئيلاً قد لا يكون له شأن بالنسبة الى الاطباء الشعبيين ، وهم جماعة العامة التجريبيين الذين اخذوا عن اهلهم وجيرانهم الوصفات النافعة في بعض الحالات المرضية ، فيتناقلون معلوماتهم شفوياً من جيل الى جيل ، ومن قبيلة الى قبيلة . يقوم علمهم على التجارب العامة ، وعلى الخرافات من شعوذات ورقى .

حفظ لنا الحديث وكتب التاريخ بعض هذه الوصفات الطبية منقولة عن لسان النبي ، والصحابة والاطباء انفسهم ، منها قول الرسول : « ان أمثل ما تداويتم به الحجامة والقسط البحري » وقوله : « الكمأة من المن ، وماؤها شفاء للعين » وقوله «الشفاء في ثلاثة : شربة عسل ، وشرطة محجم ، وكية نار ، وأنهى امتي عن

---

١ هو من بني ثقيف ، عرف باسم «طبيب العرب» . نشأ في الطائف ورحل الى ارض فارس . واخذ الطب عن اهل تلك البلاد ، ولاسيما من مدارس جنديسابور . وجاد في هذه الصناعة ، واحترف المهنة بارض فارس . فجمع مالا كثيراً وذاع اسمه . وقد ادرك الحارث الاسلام . وكان الرسول يأمر من به علة ان يأتيه ، فيسأله عن علته . مات اول الاسلام . ولم يثبت اسلامه (القفطي : كتاب اخبار العلماء باخبار الحكماء ص ١٢٢) .

٢ مائية تنعقد على بعض الاشجار عسلاً وتجف جفاف الصمغ .

الكي [١] ».

ويحرق الحصير يلتدم به مجرى الدم [٢] ، ويستعملون الماء في الحميات [٣] ، ويداوون بعض الامراض بألبان الابل واحياناً بابوالها [٤] ، وتستعمل التلبينة [٥] للمريض والمحزون على الهالك ، فهي تجم فؤاد المريض وتذهب ببعض الحزن ، وتقول عنها عائشة « البغيض النافع [٦] ».

---

١ صحيح البخاري ج ٧ ص ١٥٩ ، ١٦٤ ، ١٦٧ . اتى رجل النبي فقال : اخي يشتكي بطنه . فقال : اسقه عسلاً ، ثم اتى الثانية فقال : اسقه عسلاً ، ثم أتاه الثالثة فقال : اسقه عسلاً . فقال : فعلت . فقال : صدق الله وكذب بطن اخيك ، اسقه عسلاً ، فسقاه فبرأ . (صحيح البخاري ج ٧ ص ١٥٩) .

٢ لما كسرت على رأس الرسول البيضة في أحد وأدمي وجهه ، وكسرت رَباعيتُه ، وكان عليٌ يختلف بالماء على المجن ، جاءت فاطمة تغسل عن وجهه الدمَ ، فلما رأت الدم يزيد على الماء كثرة ، عمدت الى حصيرة فاحرقتها والصقتها على جرح الرسول فَرَقأ الدم .

٣ قال النبي : الحُمى منْ فَيْح جهنم فأبردوها بالماء .

٤ حدث بعضهم أن ناساً اجتووا في المدينة ، فامرهم النبيّ ان يلحقوا بابله فيشربوا من البانها وابوالها ، فلحقوا براعيه ، فشربوا من البانها وابوالها حتى صلحت ابدانهم ، فقتلوا الراعي وساقوا الابل ، فبلغ النبي الخبر فبعث في طلبهم فجيء بهم ، فقطع ايديهم وارجلهم وسَمرَ اعينهم (صحيح البخاري ج ٧ ص ١٦٠) .

٥ التلبينة حساء او طعام من نخالة ولبن وعسل .

٦ صحيح البخاري ج ٧ ص ١٦١ .

الانواء

كان اتساع الصحارى ، وانتجاع الاماكن المرعة ، وترقب الغيوث لارواء غليل الانسان والحيوان ، وانتهاز الايام الموافقة لانتقال الماشية عند البدو او لنقل التجارة عند الحضر ، كان كل ذلك من الاسباب الاساسية التي جعلت العربي ساكن الخيمة وقاطن القرية ، ينظر الى القبة الزرقاء ، ويلاحظ انتقال الشمس من المشرق الى المغرب ، وارتفاعها في ايام الصيف فوق الرؤوس وانحرافها في الشتاء الى الافق . ويلاحظ القمر والكمال الذي يصير اليه في النصف الاول من عمره ، والنقص الذي يعتريه بعد التمام الى ان يتلاشى شيئاً فشيئاً . عرفوا بذلك الشهور التي يقدرون بها اعمارهم ، ويحددون بها اعمالهم ، فوضعوا لكل مرحلة من مراحل الشمس اسماً ، وجعلوا من تمام القمر ونقصانه علماً ، واصبحوا يدركون ان انتقال الشمس من مكان الى آخر في السماء يؤثر في برودة الهواء وسخونته ، وفي سقوط الغيث وانحباسه ، فقسموا السنة الى اقسام هي ما ندعوه الان فصولا ، ودفعهم الى تلك الملاحظات الجوية حاجاتهم الى تفهم البيئة الطبيعية التي يعيشون فيها ، لكي يأمنوا غوائلها وتقلباتها المفاجئة . فقد يصفو الجو ويطمئن الخاطر ، فتسرح الماشية ويتبعها الرعاة ، وتخرج القوافل غير حاسبة للطبيعة حساباً ، فاذا بالجو يكفهر واذا بالغيوث تتساقط .

وقد تسكن الامطار وتشرق الشمس ، فتجفف الرمال وتهب الرياح ، فتحملها وتمطر بها المواشي والقوافل والرعاة والمسافرين .

وَقف الجاهلي ذِهنَه على فهم هذه التقلبات الجوية ، لعله يتوصل الى اكتشاف بعض قوانين عامة تساعده على محاربة الطبيعة الثائرة الجبارة . فدرس خصائص كل ريح وجعل لكل واحدة منها اسماً ، وميز بين مختلف الغيوم والبروق والرعود . وهناك مئات القصص التي يتندر بها العرب ، ليظهروا مقدرة الجاهلي في معرفة احوال الطبيعة . ولم تقتصر هذه المعرفة العملية على اناس معدودين ، كما اقتصرت النظريات الطبيعية على افراد معينين في البلاد الاغريقية ، وانما انتقلت الى كل فرد من الافراد يتناقلونها وراثة ، ويذكرونها في شعرهم ونثرهم .

الزجر

يسائل الجاهلي الطير في امر مصيره ، هذا المصير المجهول الذي قد يؤدي به الى النجاة او الهلكة ، الى الحياة او الموت ، الى النجاح في اعماله او الى الاخفاق فالخراب . كان دائماً يتطلع الى غده ، الى الامام ، لعله يعثر على قبس من نور يستضيء به في طريقه ، فيلتجيء الى الكهان ، يستنطقهم بما تخبئه له الايام في طياتها من المفاجآت لاسيما وان هؤلاء كانوا يشيعون ، ويؤثر عنهم بين العامة ، ان لهم اتباعاً من الشياطين ، يسترقون السمع ، ويأتون بالاخبار الحاضرة والمقبلة ،

فيلقونها لمن يتبعهم ، ويسألهم عن خفيات الامور .

ويعتقد ان في تصرف هذه الطيور الضاربة في قلب الاجواء سراً . فاتجاهها شرقاً وغرباً وشمالا وجنوباً ، ونزولها على شجرة او صخرة ، وتعفرها في التراب ، ونعيقها ، ومختلف اصواتها ، وحركاتها ، كل هذه لها معان خفية اودعتها قوة غير منظورة لتأويل اعمال الانسان وتفسيرها . ويستنطق الغراب بنوع خاص[1]

---

١ من ذلك ما حكي ان امية بن ابي الصلت الثقفي بينا هو يشرب مع اخوان له في قصر عيلان بالطائف اذ سقط غراب على شرفة القصر ، فنعب نعبة فقال امية : بفيك الكثكث اي التراب . فقال له اصحابه : ما يقول ؟ قال : يقول انك اذا شربتَ الكأس التي بيدك مُتّ . ثم نعب نعبة اخرى ، فقال امية كمقالته الاولى . فقال اصحابه : ما يقول ؟ قال : يزعم أنهُ يقع على هذه المزبلة في اسفل القصر فيستثير عظماً فيبتلعه فيشجى به فيموت . فوقع الغراب على المزبلة ، فاثار العظم وابتلعه فشجى فمات . فانكر امية الامر ، ووضع الكأس من يده ، وتغير لونه ، فقال اصحابه : ما اكثر ما سمعنا مثل هذا وكان باطلاً ، والحوا عليه حتى شرب الكأس ، فاغمي عليه ، ثم افاق فقال : لا بريء فاعتذر ، ولا قوي فانتصر ، ثم خرجت نفسه .

وزعموا ان رجلاً من كعب خرج في جماعة ومعه سِقاء من لبن ، فسار صدر يومه ، فعطش فاناخ ليشرب ، فاذا غراب ينعب ، فاثار راحلته ثم سار ، فلما اظهر اناخ ليشرب ، فنعب الغراب وتمرغ في التراب ، فضرب الرجل السقاء بسيفه ، فاذا فيه اسود ضخم فقتله . ثم سار فاذا غراب واقع على سِدرة ، فصاح به فوقع على سَلمة ، فصاح به فوقع على صخرة ،

فاذا خرج الجاهلي من منزله يطلب حاجة او يخطب امرأة فنعب غراب عن يمينه او عن يساره ، او سنح او برح يمضي ، فانه مدرك حاجته ، فان نعب امامه او فوقه يرجع ففيها تأخير . وان خرج يريد خصومة فنعب فوق رأسه يمضي لانه مدرك حاجته . فان خرج يطلب دابة فنعب عن يمينه او يساره على حائط مرتفع يمضي لحاجته ، فان نعب امامه يرجع . وان خرج يطلب مالا ضَلَّ عنه او سُرِق ، فنعب غراب على شجرة يابسة فلا يطلبه ، فقد استهلك ، وقد يأتيه بعضه . فان نعب على جدار جديد ، او شجرة خضراء ، فانه يصيب ماله . وان خرج يعود مريضاً ، فنهق حمار عن يمينه او عن يساره ، فالمريض صالح . وان نهق خلفه ، فقد اشتد بالمريض مرضه . وان خرج من منزله فاستقبلته جنازة وجماعة ، يرجع يومه ذاك ، ولا يعود

فانتهى اليها فاثار كنزاً . فلما رجع الى ابيه قال له : ايه ما صنعت ؟ قال : سِرتُ صدر يومي ، ثم أنختُ لاشرب فنعب الغراب . قال أثرها ، والا فلست بابني . قال اثرتها ، ثم انخت لاشرب فنعب الغراب وتمرغ في التراب . قال اضرب السقاء ، والا فلست بابني . قال فعلت ، فاذا اسود ضخم . قال ثم مه ؟ قال : ثم رأيت غراباً على سِدرة ، قال أطره ، والا فلست بابني . قال فعلت ، فوقع على صخرة . قال احْدِ يا بني ، فاحداه . (النويري : نهاية الارب ج ٣ ، ص ١٣٩ ـ ١٤٠) .

لحاجته ، فانها غير مقضية . وان رأى جواري يلعبن بالطرق كأنهن يزففن عروساً ، فهو خير وسرور ، ودخول في امر شريف ، وانه يربح ربحاً عظيماً ، وهو خير الزجر[1].

---

١ النويري : نهاية الارب ج ٣ ص ١٣٤ ، ١٣٩ .

اهم مصادر الفصل

القرآن

البخاري الصحيح ٩ اجزاء ، مصر ١٣٤٥ هـ .

الازرقي اخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ، جزآن ، مكة ١٣٥٢ هـ

ابن الكلبي كتاب الاصنام ، القاهرة ١٩٢٤ .

المقريزي امتاع الاسماع ، الجزء الاول ، مصر ١٩٤١ .

جرجي زيدان : كتاب العرب قبل الاسلام ج ١ ، مصر ١٩٠٨ .

Lammens : L'Arabie Occidentale avant l'hégire, Beyrouth 1928.

» : La cité de Taïf à la veille de l'hégire, Beyrouth 1922.

» : La Mecque à la veille de l'hégire, Beyrouth 1924.

Massé : L'Islam , Paris 1940.